طب نفسى

الشقة والمعجزة!

د. محمد شعلان

الحوار

« يا حكيم ! معذرة لهذا اللقاء الذى أحق به وجهى ، فليس هدى أن أخق ، ولكن أن أقول لك إنى لست أحدا بعينه . أنت أستاذى وأنا أحد تلاميذك . انهزت فرصة معرفتى بسكرتيرك حتى أقتحم عيادتك بدون موعد ، وألغى مواعيدك الأخرى . وأظنك لن تبخل على بذلك . وعلى أية حال فالخسارة عليك ليست كبيرة ، فإنك تقضى وقتا طويلا تستمع فيه إلى كلام كثير ، بينما الذى كنا نتطلع إليه حينما دخلنا كلية الطب أن نتافس بطول طوابير مرضانا طوابير الجمعية . وما دمت قد اخترت هذا الطريق – أن تستمع وتتأمل وتفكر – فهذه رفاهية أنت قادر عليها ومن حقك .

ونقدر لك أنك لم تفرض علينا طريقك مستغلا سلطتك كأستاذ ، بل طرحت لنا علمك لنختار منه بحرية ، بدون تسلط الامتحان . فما دمت قد اخترت هذا الطريق ولم تفرضه علينا ، فمن حقنا أن نجرب مذاقه على الأقل ، وذلك بأن نقول لك مرة إننا نعانى ونشكو . ولذلك أحاطبك اليوم كمحكم وليس كأستاذ ، وطرحت أمامك مشكلة تلميذ ما ، أى تلميذ .

استمع إلى مهما كان كلامى قاسيا مريرا . فهو على الأقل ليس كلاما كالذى أتصور أن مرضاك المرفهين يشكون منه ، فأنا لا أشكو مثلا من أن زوجتى باردة فى الفراش ، ذلك أن الفراش الذى ننام عليه مجاور للغرفة التى ينام فيها إخوتى وأبى وأمى ، بل إنه لو لم تكن زوجتى باردة لطلبت منها أن تكون كذلك ، حماية من آذان أفراد الأسرة . ومن جانب آخر إذا احتلقنا فإننا لا نستطيع أن نخرج حلافا إلى الضوء حتى يتصق ونعود أحبابا بعد عداوة ، فقد تعلمنا منك أن تكون الخلافات واضحة ومعلنة ، حتى تكون العلاقة صادقة ومكشفة ، ولكننا نخى حلافاتنا حوفا من تدخل بقية أفراد الأسرة الذى انفضح أنه يزيد الطين بلة .

وشكواى بسيطة واضحة ، لا تحتمل التحليل والتفسير : أريد شقة ، بل شقتين إذا كان لى أن أمارس عملا خاصا فى عيادة ، وليس أمامى طريق للحصول على شقة أو اثنين تعادل دخلى الحالى ، حتى لو تمكنت من الحصول على دخل مثلك . فلن يكفى ، وبصراحة أنا لا أتطلع إلى الحصول على دخل مثلك ؛ لكن أريد طوابير طويلة من المرضى أكتب لهم الروشتة تلو الروشتة ، وأصدهم بجلسات الكهرباء ، وأحيلهم إلى المستشفيات الخاصة ، بل أريد أن يكون لى مستشفى خاص ، فأنا لست أقل من أصحاب الفنادق الذين يتكسبون من ميت الناس للسياحة والاستمتاع ، ذلك أنهى على الأقل سوف أتحمل عناء رعايتهم ومشاركتهم آلامهم ، كما أريد دخلا كبيرا قبل أن أستطيع أن أفرغ وقتا للعلم والتأمل والاستمتاع . أما الآن فإنى – مع احترامى – لى غنى عن علمك وتأملاتك . فأنا أريد شقتين ، وربما مبنى لمستشفى ، لكى أبدأ . وقد علمت أن جامعة إحدى الدول العربية تطلب أطباء وأعضاء هيئة تدريس . وأنا أريد أن أذهب إلى هناك ، ويفضل أن أحصل على شهادتى ، لكن بشرط تطالبنى بالعلم . فالشهادة العلمية زينة . أما الثقافة والوعى والحكمة فهى كلها أمور ليس لها سوق حتى لو دعمتها أجهزة الدولة ومجالسها ، كمحاولة للحفاظ على وجه حسن للمجتمع ، فعائدها المادى رمزى ، وفاعليتها مسألة مشكوك فيها ، حيث لا مال ولا سلطة من وراء الثقافة . فالناس اليوم تفضل الشتائم على النقد وهز البطن على الرقص ، والآهات على الغناء . وأنا اليوم أريد أن أحلع نفسى من هذه القيم التى ستؤدى بى إلى الجوع . فأحلع نفسى عنك بالثانى .

معذرة يا سيدى ، أنى لم أكن أنوى البكاء ، ولكن عموما هذه مجرد لحظة ضعف ، سوف أتغلب عليها ، إنى أحلع عنك وأعلن ذهابى إلى صاحب الذهب الأسود ، أتلمس منه مسحة شحم ، أو حتى شمة غاز .

وهنا اسمح لى أن أوجه إليك هذه الكلمة القاسية . لقد صدقتك حينما كنت تتحدث عن العلاج النفسى كوسيلة من وسائل اللاعنف فى العلاج ، بل كنت تميز بين مناهج العلاج النفسى التى تحترم إنسانية الإنسان ، وتلك التى تتجاهلها . وكيف إن اللاعنف العلاجى يستطيع أن يحول المجنون الهائج إلى حليم وديع . ورأيتك تعلمنا باللاعنف ، فتطرح علينا منهجك دون أن تضعه ضمن المقرر ، لتعلمه إذا أردناه عن اقتناع . وترفضه إذا لم نرده ، دون أن يكون فى الحكمة إجبار . وتعلمنا منك حتى لو لم تمنحنا فيما علمتنا ، أو تمنحنا شهادة أو تقديراً . تعلمنا حب الشىء لذاته ، لا خوفا من نار أو طمعا فى جنة ، ثم صدقتك حينما تكلمت عن اللاعنف كمنهج للكفاح ، وتعبير عن القوة لا الضعف ، مستشهدا بمصطفى كامل وبقائدى فى العصر الحديث ، وبتراث الأنبياء جميعا قبل ذلك ، وقمت بتوضيح فوائد اللاعنف النفعية ، وتطرقت إلى صراعنا العنيف مع إسرائيل ، وكيف إنه يمكننا أن نحول الخسارة المتبادلة إلى مكسب متبادل ، وذلك دون سذاجة إلغاء أسس الصراع أو نفيها . فاللاعنف قد يكون إحدى وسائل التصارع ، والتصارع ضرورة من ضرورات الوجود ، لا ينحصر على علاقات الأعداء ، بل يوجد بين الأحباب . وصدقتك حينما سعدت بالمبادرة وخطوات السلم . فقد سبق أن التقينا جميعا حول هدف البناء للوطن بالسواعد والعلم ، لا بالمال المستورد ، حتى نعمل ونزرع ونحصد .

لكنك تستطيع أن تستمع بالسلام والحرية مثلما تستمع بالتأمل والعلم ، أما أنا فلم أعد أعرف لها قيمة . إنى أحترم حبك وسعيك للحوار ، دون تفرقة بين عدو أو صديق ، واحترام مبادئك ولكن المسألة لم تعد تتعلق بمبادىء ، ولكن بإطعام الأفواه الجائعة وبإيواء الأجساد الشريدة ، فأنا لا أستطيع أن أنتظر ، أريد الشقة اليوم قبل الغد ، والشقة الثانية أيضا ، ويستحسن المستشفى .

معذرة يا سيدى : أنا لن أشبع عنك أنك النهازى أو منافق أو ممالئ للسلطة ، أو أنك متحامل فى حقوق الفلسطينيين أو عميل للأمريكان . بل أرجو ألا تسىء ظنا بالكلام الذى أضعه على وجهى ، فأنا لم أقصد أن

أذكرك بالفلسطينيين . فإنك لا تقل اقترابا منهم عنى . إن لم تكن تزيد . ولم أقصد أن أذكرك بالعرب . فإنك ما زلت حتى اليوم تعرف أصولك القبلية فى بلاد العرب جنوبا وشمالا من الحجاز إلى الشام إلى المغرب . وتعتبر عمل تدريس الطب لنا باللغة العربية ، محاكاة لبقية الأقسام والكليات . ولكن فقط كل ما أقوله أنك حينما تتحدث عن السلام ، وحينما تشارك فى مؤتمرات يشترك فيها إسرائيليون ، تتباحثون فيها حول السلام ، فإن هناك الكثيرين ممن يسيئون الظن ينهمونك بما ينهمونك به ، وأنا أريد شقة ، وأريد السفر إلى إحدى الدول العربية ، ولا أجد فى نفسى الجاهة الكافية للدفاع عنك ، وبدلا من أن أصحح جبنى فإننى أجد أنه من الأيسر أن أقنع نفسى بالسكوت على إدانتك ، نعم أعلم أننى وإن كنت حتى الآن لا أقول إلا أن الآخرين هم الذين يفعلون ، وأعلم أننى أستخدمك مثلما يستخدمك الآخرون . أريدك أن تيسر لى عملا فى الدول البترولية ، فى ذات الوقت الذى أريد فيه أن تقف شاهدا فى مواجهة شيوخ البترول ، حتى لو تكاتفت فى ذلك مع أمريكا أو إسرائيل أو روسيا أو الشيطان إذا تيسر ذلك .

أريد أن تقف شاهدا فى سبيل حقوق الفلسطينيين ، فى نفس الوقت الذى أريد فيه السلم الذى يسمح لى بالسفر للعمل للحصول على شقة . أريدك أن تيسر لى الحصول على الشهادة التى ترفع من مرتبى ، وتحسن من فرصتى للسفر للعمل للحصول على شقة ، فى نفس الوقت الذى أريدك فيه ألا ترعجنى بالعلم أو بالفكر أو بالثقافة ، وبعد أن أحصل على الشقة والنفقات التى يستلزمها من يسكنونها ، فسوف أحث عن العمل فى عيادتى بالشقة الثانية والمستشفى إن أمكن ، حتى أوفر لهم احتياجاتهم ، وعندئذ سوف أعود إليك لأنطق منك العلم ، أما الآن فلا علم ولا ثقافة بل حتى لا أريد السلطة أو المساهمة فى العمل السياسى أو الاجتماعى ، ولتظل إلى من معارضى أوراقك ، فقط أريد الشقة ، إذا كان يؤلمك مظهرى وأنى صاحب مبدأ أليسه الوطنية أو الثورية أو المعارضة السياسية ، فلأطمئنك أن المسألة ضرورة ، فيا أنى لست من الصفوة فى أى شىء ، بل اعانى لأنى لست من الصفوة ، فمن الطبيعى أن أكون معارضا أو أبدو هكذا ، فهى أبسط من كل ذلك ، أريد شقة ، وإن لم تكن تستطيع أن توفر فى شقة فعلى الأقل أتوقع منك أن توفر فى فرص العمل بالسفر ، وإن لم يكن فالتوفر فى الشهادة التى تزيد من هذه الفرص ، وهذا بصراحة هو أضعف الإيمان ، أريد شقة ! ألا تفهم ؟ فلتنظر إذن وراء الشام ، ما الذى أحمله فوق هذه الأكتاف ، لا تترعج ، نعم ، إنها شقة !

والآن أستودعك ، فأنا لا أريد أن أنتظر حتى أسمع ردك ، فأنا أعرف ما الذى سوف تقوله ، لقد حفظتك عن ظهر قلب ، المسألة كلها أنى أريد شقة ، وأنا لا أريد أن أضعف مرة أخرى ، أردتك أن تسمعنى دون أن أسمعك أنا بالضرورة ، أن تتلمذ دون أن تعلمنى فأنا المخروم من الكلمة ، وأنت لديك الفرصة لأن تقول كلمتك ، وكان أمل أن تكون كلمتك تعبيراً عن صرحتى ، أن تترجم بأساليك السلمية ما يجيش فى صدرى من صراخ إلى كلام هادىء ، أن تنقل صوتى هادئا عاقلا إلى مسئول ، وأقصد بالمسئول من يستطيع أن يرى ويعمل ، لا من يجيد التبرير أو الكلام المريح ، ناهيك عن إلقائى بأنى شيوعى أو منطرف دينى أو إحدى كليات السب الحديثة الأخرى ، إذا كانت كلمتك فعلا تعبيرا صادقا فأنا أتمنى أن تنقل كلمتى هذه .

أستودعك الله وأعيد التمام لأحق عورتى .

□ □

خير ما فعلت يا صديق ان ذهبت قبل أن أرد عليك . كنت أعلم أن هناك شيئا ثقيلا تحمله على كتفيك . فقد أوقفت عقلك وأحطته بحوائط من السلح . ولما لم تجد الغاز الذى تعدى به بينك بالطاقة حرقت الشبع ، كأنك تبحث عما يعيب وعيك أو يخفف ألمك . ولم أكن أريد أن أرد عليك حتى أنبيك عن عزمك فى البحث عن احتياجاتك الأساسية . لم أكن أريد أن أسهرك بجبال العلم والثقافة . فتستعيض به مؤقتا عن سعيك المستمر الذى طال من أجل رزقك . نعم إن العلم والأخلاق والفن المبدع ، كل ذلك قلما ارتبط بالمال . كم نبى وكم من عبقرى عاش فقيرا ومات فقيرا . ولكن كم ما يقرب من حفل الأنبياء أو عبقرية العاقرة ، حتى نجد فى ذلك المواساة عن الفقر ، فنذهب إذن ونلعط للعجل الذهبى حوله ، ووسط هذه المعاناة نجد الكثيرين ممن يعانون نجرد أنهم تفهقروا درجة فى سلم الثراء والسلطة ، هؤلاء الذين أثروا ثراء فاحشا بعد كل ثورة ، ثم تخلفوا عن الركب قليلا ، وأحبط طموحهم فى أن يستمروا فى التكاثر فى جمع المال أو السلطة ، نجد هؤلاء يدافعون عنك ، ويتحدثون باسمك ، حتى هؤلاء منهم الذين خرجوا من الصفوة لسوء السلوك ، مثل الانتهازية الفاضحة أو الفساد المكشوف ، هؤلاء اليوم يدعون الوطنية ويبادرون بالرفض وبالصمود والتصدى ، ويستخدمونك كالوقود لإشعال النار التى تمهد لهم العودة متقضين فى حضم الفوضى والفوضاء ليستعيدوا مكانتهم فى القمة . أما الأشراف الذين يتحدثون بصوتك ، ويعبرون عن مشاعرك ، والمثقفون الذين لم يعرهم بريق الذهب ، فصوتهم حافت غير مسموع ، مثلك يحملون الأثقال على كتفيهم ، ويسيرون فى تأن ، صوتكم حافت أو مكتوم أو مغمور وسط الضوضاء ، فهل من مسئول يمتلك الجرأة والجسارة مع الرقة التى ترويض الأسد والوحوش فيقوم بمبادرة على نبح مبادرة السلام نحو من كان بالأمس عدوا ، ولكنها هذه المرة مبادرة داخلية نحو من يقال عنه اليوم عدو ، أى مبادرة للالتفاف بالمعارضة الشريفة الساكنة المغمورة ، ولأنك ساكت ، سهل عزلك وإدانتك وتقديمك ككبش فداء ، بدلا من توجيه الضوء للأعداء الحقيقيين .

ولعل هنا أسترجع إحدى قصص الدراويش التى لا أتذكر تفاصيلها ، ولكن فحواها : أن سلطانا أراد أن ينشىء مدرسة ليعلم فيها حكيم معروف حكمته ، فاستدعى الحكيم وطلب منه أن يأمر بما يريد حتى تقام المدرسة ، فأمر الحكيم القوم « من يريد أن يتلقى العلم منكم فليقف على هذا الجانب » ، فاستجابت الأغلبية الانتهازية التى تأكل على كل « طبلية » ، فطلب منهم أن يبدوا ببناء المدرسة ، ولما أنجوا بناءها ، طلب الحكيم من القلة التى لم تقف معهم أن يهدموها ويذهبوا معه .

إننا كثيرا ما نذكر أنفسنا أن عهد المعجزات قد انتهى ، حتى نستمر فى السير فى المسالك التقليدية ، فنفعل ما هو متوقع وما هو منتظر ، والنتيجة أن غريمنا يتمكن من التنبؤ بما سوف نفعله ، فيعمل حسابه ويدبر للعبة المضادة ، ومع ذلك فمن كان يتوقع أن يحدث ما حدث فى مايو ١٩٧١ أو فى أكتوبر ١٩٧٣ أو فى نوفمبر ١٩٧٧ ؟ ولو كان ما حدث منتظرا لكان لتدبير اللعبة المضادة ممكنا ، ولما ارتبكت العقول الالكترونية ، ولما جاءت النتائج مما جاءت به .

إن حدوث مبادرة داخلية تعيد توحيد صفوف القوى الوطنية الشريفة أمر مستبعد وغير منتظر ، ولكن من قال إن المنتظر هو الذى سوف يحدث ؟ المطلوب معجزة سياسية ، تلوها معجزة أكبر ، وهى حصول الشاب على شقة .

□

الخيال يتحول إلى حقيقة بفضل الإيمان والإرادة

منذ ربع قرن خطرت لمواطن مصرى فكرة رائعة لم تلبث أن سيطرت عليه .. وتغلغلت فى نفسه .. واستحوذت على كل خلية من خلاياه تفكيره .

ولكن تلك الفكرة الممتازة كانت تعترضها آنذاك عشرات المصاعب والمشاكل والعقبات ، كانت مجرد فكرة أشبه بالحلم أو الخيال .

وأشفق الكثيرون على المواطن المصرى أحمد حسين وقالوا له : لا تكن خياليا .. أنت تريد عمل موسوعة تجارية ضخمة لدول العالم حافلة بأدق المعلومات .. مطبوعة على ورق فاخر بأروع الألوان .. وكل هذا جميل .. ولكنه يحتاج إلى جهاز ضخم متعدد الجنسيات من المحررين والمندوبين والوكلاء المنتشرين فى جميع أنحاء العالم فكيف .. كيف تستطيع تحقيق ذلك كله وأنت وحدك بلا معين أو نصير ؟

ولكن أحمد حسين لم ييأس .. بل ازداد تصميما واصرارا .. وبدأ وحده فى تحقيق فكرته الكبيرة من (تحت الصفر) كما يقولون .

وعندما تسنى أول مكتب لمؤسسة الوسيط التجارى لدول الشرق لم يكن يملك إلا إيمانه وإرادته .. ولكن كم فى الحياة من مستحيلات يمكن الوصول إليها بالايمان القوى والارادة الجبارة .. والجهاد الذى لا يقف عند حد .

وهكذا تحول الخيال إلى حقيقة .. وأصدر أحمد حسين (الوسيط التجارى لدول الشرق) المعروف عالميا الآن باسم EASTERN TRADE GIRECTORY E.T.D والذى يطبع سنويا – منذ ربع قرن – باللغتين العربية والانجليزية فى أكثر من ١٥٠٠ صفحة من الورق الفاخر .

وقد ساهم (الوسيط) منذ صدوره فى تعميق الصلات التجارية والصناعية والروابط الاقتصادية والسياحية بين مختلف الدول .

واستطاع من خلال التجارب العملية والخبرات الخصبة أن يكتسب فى تخصصه مكانة دولية رفيعة فى أكثر من مائة دولة فى أربع قارات بفضل تطوره المستمر .. وابتكاره المزيد من الامكانيات الجديدة لتنشيط الميعات بين مختلف الأسواق .. فضلا عن عرضه الجذاب وطباعته الفاخرة .. وتوزيعه العالمى الواسع الانتشار عن طريق مكاتبه المنتشرة فى جميع أنحاء العالم

إن النجاح فى الحياة يعتمد على ايمان المرء بنفسه .. وايمان الناس به

وهذا القدر المتوازن من ثقة الانسان بنفسه .. وثقة الناس به يعتبر محل عنصرا فعالا لابد منه للنجاح فى الحياة